الحياة الفكرية والثّقافية في عهد الموحّدين -تلمسان أنموذجاً-

أ نجاة بلعباس
إشراف الأستاذ الدّكتور: محمد مرتاض
جامعة تلمسان معسكر

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى تبيان أهمّ مكوّنات الحياة الثّقافية والفكريّة على عهد الموحّدين الّذين واصلوا مسيرة التّقدّم وإعلاء شأن المغرب الإسلامي ونشر الدّين والعلم، فشهد حكمهم فترة من أخصب الفترات إبّان العصور الوسطى، وبفضل ما وصلوا إليه من تقدّم وازدهار فكري وعلمي في شتّى أنواع العلوم والمعارف، وكانت تلمسان واحدة من أهمّ مراكز العلم في الدولة الموحّدية تُسهم بشكل فعّال في رفد الحركة الفكريّة، وترسيخ مبدأ التّواصل الحضاري والثّقافي بين أصقاع المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الفكر، الثّقافة، العلوم والآداب، الموحّدون، المغرب الإسلامي، تلمسان

Abstract:

Intellectual and cultural life in the era of monotheists – Tlemcen as a model-

This research aims to identify the most important merits of the cultural and intellectual life at the time of the monotheists who continued the march of progress and uphold the dissemination of Islam and science. their period is the most fertile period of the Middle Ages, thanks to what they have achieved progress and prosperity of the intellectual and scientific in various types of science and knowledge Tlemcen was one of the most important science centers in the monotheists land, it contributed effectively in providing the intellectual movement and establishing the principle of civilizational and cultural communication between the west Islam.

Keywords: thought, culture, science, literature, Unitarian, the Maghreb Islam, Tlemcen.

افتتاحية:

تأسّست دولة الموحّدين على يد محمد بن تومرت في القرن السّادس الهجري، مرتكزة على الدّعوة إلى التّوحيد الخالص، ومطبوعة بطابعي التّجديد والعظمة، ثمّ بعد وفاة زعيمها الأوّل بُويع عبد المؤمن بن علي لمنصب الخليفة له، حيث تمكّن من تقويض حكم المرابطين وإحكام قبضته على المغرب الإسلامي والأندلس، وبما أنّ هدف التّوحيد هو نشر الدّين وتلقين تعاليمه، فإنّ ذلك لا يتأتّى إلاّ بالعلم والمعرفة؛ نجد أنّ جُلّ من حكم الدّولة الموحّدية إلاّ وقد سعى لرفد الجانب الثّقافي والحضاري للدّولة، وكان له اهتمام خاصّ بالعلوم والآداب والفنون، فتكوّنت في غضون ذلك مراكز ثقافيّة مميّزة يؤمّها العلماء والفقهاء وطلاّب العلم من مختلف الأماكن، وازدهرت فيها الحياة الفكريّة والعلميّة وكثُر الإنتاج الفكري، وانعقدت المجالس والمناظرات وبرزت شخصيّات رائدة تركت بصمات واضحة وتراثا حيّا حتّى يومنا هذا.

ومن بين المراكز الثّقافية المنتشرة في ربوع الدّولة الموحّدية الّتي أدّت دورا هامّا في تفعيل النّشاط الفكري والثّقافي، نجد حاضرة تلمسان الّتي كوّنت واستقطبت جمعا غفيرا من العلماء والرّحالة، واستطاعت أن تصبح حاضرة للمغرب الأوسط، ومن هنا نطرح التّساؤل الآتي: بم تميّز المشهد الثّقافي الموحّدي؟ وما مقدار إسهام حاضرة تلمسان في رفد مستوى الحركة الثّقافية الموحّدية؟

أوّلا: وصف المشهد الثّقافي الموحّدي

شهدت فترة المرابطين اهتماما خاصّا بالحركة الفكريّة حيث قرّب يوسف بن تاشفين العلماء والصّلحاء وأكرمهم ونفقت سوق العلم، وازدهرت الحياة الفكريّة والدّينيّة أيّما ازدهار، فلمّا مَلك الموحّدون زمام الحكم وجدوا كلّ الظّروف مهيّأة أمامهم لمواصلة البناء والتّعمير الحضاري، فعمدوا إلى المعارف بالدّرس والتّحصيل، « كما شجّعوا كثيرا من العلوم الّتي لم تكن رائجة أو كان محظورا رواجها في العهد المرابطي، وطبعوا كلّ ذلك بطابعهم الثّلاثي الخاص، وإنّ تشجيعهم للمعارف

الّتي كانت شائعة في عهدهم بلغ مبلغا عظيما، وكان تشجيعا ماديّا وأدبيّا تفنّنوا فيه ما شاءت لهم هِمَمُهُمْ الكبيرة أن يتفنّنوا »[1]، وهم بذلك قد أطلقوا حرّية التّفكير والبحث الّتي كانت شبه مقيّدة في عصر المرابطين، ممّا أسهم في تنشيط العلوم الدّينيّة من فقه وحديث وغيرهما، إلى جانب العلوم اللّسانيّة والعقليّة وبخاصّة علم الفلسفة، وكتب التّراجم حافلة بعدد كبير من أسماء المفكّرين في شتّى العلوم والمعارف.

نعم، لقد نالت العلوم مكانة هامّة لدى الموحّدين حكّاما ورعيّة، فنشطت حركة التّعليم والتّعلّم بتأسيس المدارس والمعاهد واستقبال طلاّب العلم فيها، سواءٌ ضمن التّعليم الإجباري أو الاختياري، والظّاهر أنّ الموحّدين تأثّروا بالأساليب التّعليميّة الّتي نادى بها الغزالي كإدماج الرّياضة، ومزج الأدب بالعطاء، كما قاموا بسنّ إجباريّة التّعليم باللّسانين العربي والبربري، دون أن يستثنوا العنصر النّسوي بل منحوه حقّه من التّعليم [2]، وكثيرا ما كانت الدّولة هي من تتكفّل بنفقات طلاّب العلم ولاسيّما الحفّاظ منهم، ليتمّ اختيارهم خصّيصا لتطبيق تعاليم الدّولة ونشرها وشغل مناصب إداريّة حسّاسة، هذا فضلا عن تلك المجالس العلمية التّي كانت تُقام هنا وهناك من لدُن الخلفاء والعلماء والمفكّرين، من ذلك ما يذكره الغبريني عن مجلس الشّيخ أبي الحجّاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائري فيقول: «كان له مجلس واسع الحضور يحضر فيه كثير من الطّلبة، ويقرأ كلّ واحد منهم باختياره، حضرت مجلسه يقرأ فيه الإيضاح والجمل والمفصّل ويعرب فيه الشّعر ويقرأ فيه الأدب، ويطول مجلسه لكثرة الطّلبة وكثرة تفنّنهم فيما يقرؤون »[3]، فكان عدد الطّلاب يتزايد على حسب مكانة الشّيخ المُقرِئ، وكثافة برنامجه العلمي وتنوّع كُتبِه ممّا يفتح الباب بمصراعيه أمام النّقاش والمشاركة كلٌّ بما يملكه من معارف دون تعصّب أو جدال، وغالبا ما كانت تتمّ تلك المناظرات بين العلماء في مسائل معيّنة فيُدلي كلٌّ واحد بدلوه فيما يُطرح في المجالس من إشكالات منشّطين بذلك جوّ التّنافس العلمي، حيث ارتقى فنّ المناظرات في عهد عبد المؤمن بن علي المشهور بحرّية الرّأي الّتي أطلقها للنّاس، فكثرت مجالس العلم الّتي كان يعقدها الخلفاء الموحّدون مع الأشياخ وكبار العلماء، ومنهم الوافدون عليهم مثل الّذين جلبهم إلى يوسف بن عبد المؤمن أبو بكر ابن طفيل [4]، وقد ارتكزت هذه المناظرات على التّحليل والتّعليل والمحاورة بهدف الوصول إلى حلّ المسائل والقضايا المختلَف فيها وتعميم الفائدة والمعرفة على الجميع.

وبسيادة هذا الجوّ العلميّ في المجتمع الموحّدي فإنّ حركة اقتناء الكتب والمصنّفات وتأليفها قد بلغت شأوا كبيرا، فأولى الموحّدون الاهتمام بالعلوم الدّينية من قراءات وتفسير وحديث، وهذا «علم الفقه على مذهب مالك قد واصل تفرّعه وانتشاره كما كان من قبل أو أكثر، ونتيجة للتّفاعل مع الدّعوة الجديدة فقد مال أهله إلى التّرجيح والتّأويل ونبذوا التّعصّب لأئمّتهم وشيوخهم »[5]، وفق ما يمليه القرآن الكريم والحديث الشّريف بل ألّف العلماء حوله الكتب منهم: علي بن أبي قنون بكتابه المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى، وأبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي بكتابه التّذكرة في أصول علوم الدّين وغيرهما.

هذا إلى جانب ما أُلّف أيضا في العلوم الأدبيّة واللّسانية وما تحويه من لغة ونحو وبيان وأدب، فقد عرف الموحّدون ازدهار هذه العلوم فنبغ الأدباء والشّعراء بفضل ما لاقوه من اهتمام واحترام وإكرام، وهو ما يذكره عبد الله كنّون في قوله:« هذا وغيره يفيدك بالخبر اليقين عن عناية الموحّدين بالأدب ويدلّك على نشاط الحركة الأدبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزّاهر، حتّى عمّت البدو والحضر والعرب والبربر، فأخصبت الأفكار وتفتّحت العقول وآتت الآداب والفنون أُكلها الشّهي وثمرها الجنيّ»[6]، _مثلما وقع في العلوم الدّينيّة أيضا_ حيث برع فيها أدباء وشعراء عدّة، تفرّدوا بآراء مميّزة وشغلوا مناصب التّدريس والتّحقيق ونظموا الأشعار الرّائقة الفائقة، كأبي علي حسن بن علي بن عمر الفقّون الّذي كان شاعر بني عبد المؤمن وقد وفد على خلفائهم بمراكش ونظم رحلته في قصيدة، كما امتدح النّاصر بن المنصور بقصيدة بليغة، وله ديوان شعر كان موجودا بأيدي النّاس [7]، ومن المعلوم أنّ الدّولة الموحّدية كانت من أوائل الدّول في المغرب الإسلامي الّتي حرصت على الشّعر والاعتناء بالشّعراء لِما يُسجّلونه من مفاخر بأسلوب حسن رائق.

أمّا عن العلوم العقليّة فقد شهدت نهضة عالية زمن الموحّدين، وراح العلماء يُجدّون في البحث والتّنقيب لِمَا وجدوه من حرّية الفكر والجوّ الملائم للإبداع والكشف/ نذكر منها: علم الحساب والفلسفة والهندسة والهيئة والمنطق والكيمياء والطّب والصّيدلة، فكلّها كانت شائعة ناهضة في عصر الموحّدين وبديهي أنّ ما ذُكِر من العلوم إنّما هو مثال فقط

للنّهضة العلميّة الّتي ظهرت حينئذ في أكثر من العدد المذكور، وازدهرت في علوم أخرى نخصّ منها بالذّكر علم السّياسات...[8]، كما أُلّفت في هذه العلوم بعض الكتب منها الأدوية المفردة للشّريف الإدريسي، وأرجوزة الجبر لابن ياسين، والنّفخ والتّسوية لأبي الحسن المسفر وغيرها من المصنّفات المتنوّعة، فكلّ هذه المؤلّفات إنّما نجدها تنمّ عن المستوى العلمي الرّاقي الّذي وصل إليه الموحّدون وشهد به كلّ من عاصرهم أو سمع بهم.

ثانيا: أهمّ المراكز الثّقافية على عهد الموحّدين

استطاع الموحّدون تكوين دولة قويّة مترامية الأطراف بسطت نفوذها على عدّة أجزاء من المغرب الإسلامي بغية توحيدها؛ وفعلا تمكّنوا من ذلك حيث ضمّت الدّولة الموحّدية إليها كلاّ من الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط والمغرب الأدنى، وحقّقت إنجازات حضاريّة وثقافيّة مبهرة ضمن المراكز الثّقافيّة المنتشرة عبر إقليمها وهي كثيرة، قد ذاع صيتها في كلّ حدب وصوب فنجد: تيهرت وبجاية وتلمسان والقيروان وفاس ومراكش وقرطبة واشبيلية وغرناطة، وغيرها وسنحاول في هذا البحث أن نذكر بعض أهمّ هذه المراكز باقتضاب:

ـ اشبيلية: اتّخذ الموحّدون من اشبيلية مركزا ثقافيّا مهمّا نبغت فيه طائفة من العلماء والمفكّرين والأدباء الّذين خلّفوا وراءهم عدّة مصنّفات في شتّى المجالات، بخاصّة ما يتعلّق بالجانب الأدبي، كما وفد إليها عدد هائل منهم ومن طلاّب العلم –وقد تمّ إكرامهم– لينهلوا من معارفها ويستفيدوا من خبرات علمائها، وعن الدّراسات الأدبيّة والنّحوية، فقد عرف العلماء مدرسة اشبيلية الّتي يختلف أهل المغرب إليها بتوجيه الأسئلة النّحويّة وبيان بعض المسائل العالقة كمسائل الإعراب[9]، ومن بين ما أنتج علماء اشبيلية شرح كتاب سيبويه، وشرح الجمل للزّجاجي لابن خروف الاشبيلي، وهذه المؤلّفات لا تُشكّل إلاّ جزءً يسيرا من ذلك الكمّ الهائل الّذي تزخر به اشبيلية من المصنّفات.

ـ فاس: احتلّت فاس مكانة مرموقة في عهد المرابطين، وقد ظلّت على حالها زمن الموحّدين منبعا للعلوم والآداب والفنون؛ فهي تحوي جامع القرويّين في ثناياها الّذي يأتيه العلماء من كلّ مكان للدّراسة خاصّة أنّها من إحدى أشهر المدارس النّحوية بالمغرب، ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب...رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كلّ طبقة فرارًا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس، فهي اليوم غاية في الحضارة [10]، فعمرت أرجاء فاس بالعلماء الّذين كانوا يُقيمون المناظرات العلمية والمناقشات الثّقافية ومجالس نظم الشّعر الّتي برع فيها محمّد بن حبّوس الفاسي بديوانه الشّعري.

ـ بجاية: وهي مركز ثقافي هام في عهد الموحّدين وملتقى لعدّة ثقافات مرّت بها، كثر عليها الوافدون من علماء وفقهاء وأدباء ورجال العلم، وانتشرت فيها المجامع العلميّة ودور العلم المختلفة، فنشطت العلوم الدّينيّة كالفقه والحديث وعلم الكلام والعلوم اللّغويّة والتّصوف والطّب والصّيدلة، وأنجبت أيضا فطاحل من الأدباء والشّعراء والكتّاب والمفكّرين [11]، ومن بين هؤلاء الأعلام محمد عبد الحق الاشبيلي، وناصر الدّين المشدالي وغيرهم، وأكبر دليل على ما نقول كتاب عنوان الدّراية للغبريني الّذي يتحدّث فيه عن حاضرة بجاية ويُعدّد ما أنجبته من علماء في شتّى العلوم والمعارف.

ـ القيروان: تعتبر القيروان مركزا ثقافيّا مرموقا في المغرب الأدنى، لها تاريخ سياسي وثقافي عريق منذ الفتح الإسلامي فهي « دار العلم بالمغرب، إليها يُنسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم، وقد ألّف النّاس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزّهاد والصّالحين والفضلاء المتبتّلين، كتبا مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطّبني وغيرهما من الكتب...»[12]، فقد عُرفت القيروان بمعهدها العلمي البارز والمشهور وهو جامع الزّيتونة الّذي جلب إليه طلاّب العلم والعلماء من جميع أرجاء العالم الإسلامي للاستزادة وفي سائر أصناف المعرفة.

ثالثا: الحركة الثّقافية والفكريّة بتلمسان الموحّدية

تعدّ تلمسان واحدة من أهمّ المراكز الثّقافية بالمغرب الأوسط نالت مكانة هامّة عبر العصور لعدّة أسباب أبرزها موقعها الجغرافي الممتاز، فهي من أحسن المدن لكونها تقع في ملتقى الطّرق الرّئيسيّة الرّابطة بين الشّرق والغرب وبين الشّمال والجنوب؛ فالدّاخل للمغرب الأقصى آتيا من تونس أو

الجزائر، والخارج منه آتيا من مراكش أو فاس لابدّ له من المرور عليها والنّزول والإقامة بها ولو أيّاما قلائل [13]، أضف إلى ذلك ما منحها الخالق من جمال الطّبيعة وعذوبة الماء وصفاء الهواء، فشهدت تطوّرات هائلة في جميع مجالات الحياة وأخذت تنافس سائر المراكز المنتشرة عبر أقاليم المغرب الإسلامي، فلمّا آل أمرها للموحّدين تملّكها عبد المؤمن بن علي سنة 539هـ، وولّى عليها في البداية سليمان بن محمد بن واندين، وقيل يوسف بن واندين [14]، ثمّ مع مرور السّنين تعاقب على الحكم بنو عبد المؤمن بن علي وعلى سائر المناصب السّياسية الحسّاسة بالدّولة، وجملة القول أنّ تلمسان مثّلت بالنّسبة للموحّدين مركزا هامّا من مراكز الدّولة وهذا ما يؤكّده عبد الرّحمن بن خلدون بقوله: « وكانت تلمسان لذلك العهد نزلاً للحامية، ومناخا للسيّد من القرابة، الّذي يضمّ نثرها ويذبّ عن أنحائها » [15]، كما أنّ عبد المؤمن كان يُنصّب إلى جانب أبنائه مجموعة من الفقهاء والقضاة والعلماء لمساعدتهم على شؤون الحكم والإدارة فشهدت الدّولة نوعا من النّشاط والازدهار، فتعاظم دور تلمسان بحيث أصبحت حاضرة للمغرب الأوسط بخاصّة بعد تلاشي دور تيهرت وغيرها من المدن.

أمّا من حيث الجانب الثّقافي فقد اهتمّ الموحّدون حكّاما ورعيّة بالعلم والمعرفة فعمرت المساجد والكتاتيب والزّوايا بالعلماء والطّلبة؛ يتعلّمون بها العلوم الدّينيّة واللّغويّة ويعقدون المجالس العلميّة والمناظرات والمحاورات، بل لقد علا شأن الصّوفيّة وذاع صيتهم آنذاك أبرزهم أبي مدين شعيب الأندلسي دفين العبّاد، وسليمان بن عبد الرّحمن بن المعزّ الصّنهاجي المعروف بالتّلمساني، وهذا السّلطان يوسف بن عبد المؤمن الكومي الّذي كان واسع الاطّلاع في العلوم الشّرعية والأدبيّة والفلسفيّة، كثير الإيثار للعلماء من أحسن النّاس ألفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النّحو...كما طمح به شرف نفسه وعُلُوِّ همّته إلى تعلّم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطّب إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب ممّا اجتمع للحكم المنتصر بالله الأموي [16]، فهو قد جمع بين مسؤوليته في إدارة الدّولة كما لم ينس نصيبه من العلم فأخذ من كلّ علم بطرف وجمع بين أنواع العلوم المتنوّعة الدّينيّة واللّسانيّة والعقليّة، ولم يتوان عن جلب النّخبة من العلماء إلى بلاطه من أمثال :ابن طفيل وبن رشد وبن زهر وغيرهم، كما لا ننسى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن؛ فبالرّغم من أنّه كان من أعظم سلاطين الدّولة الموحّدية، فإنّه كان عالمًا مُلمًا بالعلوم الدّينيّة والعقليّة فقد بنى عددا كبيرا من المدارس والمساجد والصّوامع والقناطر والمستشفيات بالأندلس والأقطار المغربيّة كلّها، وخصّص للعلماء وطلبة العلم مُرتّبات ثابتة [17]، وهذا إنّما يدلّ على حرص الحكّام على رفد الحركة الفكريّة للبلاد فلابدّ أن يكونوا المثل الأعلى والقدوة للرّعيّة في هذا المجال، فكثيرا ما كانوا يجمعون العلماء حولهم ويستمعون إليهم ويُسمعونهم آرائهم، ويتناقشون في عدّة مسائل، وطلاّب العلم هناك يُشاهدون ويستفيدون من هذا السّجال العلمي دون تمييز أو تعصّب أو تقسيم طبقي، كما أنّ الأمراء والولاّة هم أيضا كانت لهم مجالس للمذاكرة والمناظرة في أنواع العلوم، كمجالس الأمير أبو زكريا يحي بن يوسف بن عبد المؤمن وممّن كان يحضرها عبد الواحد المرّاكشي صاحب المعجب المؤرّخ الشّهير، والكاتب الشّاعر أبو إسحاق إبراهيم الزويلي [18]، وبذلك حظي علماء الموحّدين وبخاصّة علماء تلمسان بسمعة طيّبة لإسهاماتهم القيّمة في نشر العلوم بين أبناء المغرب، حيث اشتغل جُلّهم بتدريس الطّلبة وتنوير عقولهم، منهم أبو عبد الله الشّوذي الاشبيلي نزيل تلمسان والمعروف بالحلوي، الّذي كان يّدرّس بمسجد صغير عند خندق عين الكسور بخارج باب القرميدين بتلمسان [19]، يُقرئ الطّلبة القرآن والحديث ويأخذون عنه ما تيسّر من الآداب وحلول المسائل المختلفة، كما خلّف علماء تلمسان العديد من المصنّفات في شتّى العلوم والآداب نذكر منهم: محمّد بن عبد الحقّ بن سليمان الكومي اليعفري التّلمساني بمؤلّفاته منها المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار، وكتاب في غريب الموطّأ، والتّسلّي عن الرّزيّة والتّحلي برضى باري البريّة، وفرقان الفرقان وميزان القرآن، ومحمد بن عبد الرّحيم بن أبي يعيش الخزرجي الّذي فسّر القرآن الكريم وترك كُتبًا في أصول الفقه، كما نجد أيضا أبو الخطّاب بن دحيّة الكلبي نزيل تلمسان الّذي كان من أحفظ أهل زمانه باللّغة حتّى صار حوشي اللّغة عنده مستعملا غالبا عليه، ولا يحفظ الإنسان من اللّغة حوشيها إلاّ وذلك أضعاف أضعاف محفوظة من مستعملها[20]، وله كتاب في النّحو سمّاه الصّارم في الهندي في الرّد على الكندي في مسألة من علم العربيّة، إضافة إلى

محمد بن عبد الله حافي رأسه، فله شعر رائق تغنّى به في مناسبات مختلفة نذكر منه :

شَكَوْتُ إِلَيْكَ نُور الدِّينِ حَالِي وحَسْبِي أَنْ أَرَى وَجْهَ الصَّوَابِ

وَكُتْبِي بِعْتُــهَا وَرَهَنْتُ حَتَّى بَقِيتُ مِنَ المجُوسِ بِلاَ كِتَابِ [21]

وقد عُرف عن الدّولة الموحّدية وعنايتها بالشّعر والشّعراء وتوظيف ذلك في عدّة مجالات من الحياة السّياسية والفكريّة والأدبيّة والتّعليميّة.

ولم يكتف الموحّدون بتحصيل العلوم الدّينيّة والأدبيّة فقط بل أطلقوا الحريّة للتّفكير والتّدبّر، فاهتمّوا بالعلوم العقليّة أيضا فانتشرت انتشارا واسعا لم تبلغه من قبل في أيّ عصر من العصور كعلوم الفلسفة والمنطق والحساب والهيئة والهندسة والطّب والصيدلة، فعن العلوم الطّبية أُنشئت لها مراكز للعلاج عبر أقاليم الدّولة وشجّع الحكّام الأطبّاء على البحث والتّنقيب، كما كان للخلفاء أطبّاء خاصّون بهم كالخليفة النّاصر الّذي أشرف على مداواته مجموعة أطبّاء أبرزهم الطّبيب الفقيه أبو عبد الله محمد بن سحنون المعروف بالنّدرومي [22]، فلم يكتف الموحّدون بالحرص على صحّتهم فقط بل نالت الرّعيّة جانبا من هذا الاهتمام؛ حيث أُقيمت المخابر لجمع الأشربة والمعاجين والنّباتات الطّبيّة المتنوّعة ومساعدة المحتاجين والمرضى.

وبذلك أصبحت تلمسان من أكثر المراكز العلميّة الموحّدية ازدهارا وثراءً، وهو ما أدّى إلى دفع حركة التّفاعل بينها وبين المراكز الثّقافيّة الأخرى بالمشرق والمغرب، وبفضل تلك الرّحلات العلميّة للعلماء وطلبة العلم، وحركة تبادل المصنّفات النّفيسة وتدارسها من لدُن الأفراد والجماعات.

الخاتمة:

بعد استعراضنا لهذا الموضوع المتمثّل في التّعرّف على جوانب من الحياة الفكريّة والثّقافيّة على عهد الموحّدين وبخاصّة على أهمّ حاضرة في هذه الدّولة وهي حاضرة تلمسان، وما وصلت إليه من ازدهار وتألّق في هذا العصر، فإنّنا توصّلنا إلى مجموعة من النّتائج هي كالآتي:

– تميّزت الحياة الثّقافيّة والفكريّة على عهد الموحّدين بالازدهار والرّقي الحضاري؛ وذلك بفضل تلك النّزعة العلميّة الّتي اصطبغ بها الموحّدون حكّامًا ورعيّة، رافقتها حرّية الفكر والبحث والاطّلاع على كلّما هو جديد ومفيد.

– أسهم الموحّدون إلى حدٍّ كبير في الرّعاية بمختلف العلوم الدّينيّة والأدبيّة ولاسيما العلوم العقليّة، وتأليف الكتب والمصنّفات حولها ونشرها لتعمّ الفائدة جميع من ابتغى العلم هدفا له في الحياة.

– تعدّدت المراكز الثّقافية والعلميّة في دولة الموحّدين، وسعت كلّ واحدة منها للتطوّر والرّفع من مستواها الفكري لتكون أهلاً لمنافسة مثيلاتها داخل إقليم الدّولة وخارجه.

– مثّلت حاضرة تلمسان نموذجا يُحتذى به كونها من بين أفضل المراكز الثّقافيّة في عهد الموحّدين، وبفضل رصيدها المعرفي وأبنائها العلماء الأجلاّء الّذين ضاقت المصادر بذكر سيرهم وتِعداد مناقبهم.

– تحوّلت تلمسان إلى قطب علميّ رائد يجمع بين ثناياه عددا كبيرا من العلماء والفقهاء وطلاّب العلم، وكمّا هائلاً من المصنّفات والمؤلّفات في شتّى أنواع العلوم والمعارف، فغدت بحقٍّ حاضرة المغرب الأوسط بلا منازع.

هوامش وإحالات:

1) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، دار المغرب للتّأليف والنّشر، الرّباط، ط2، 1977، ص15.
2) التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، صفيّة ديب، كنوز الحكمة للنّشر، الجزائر، دط،2011، ص96.
3) عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني، أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م، ص77.
4) التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، صفيّة ديب، ص160
5) : النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج1، التّراث المغربي الأندلسي، طنجة، المغرب، ط2، 1960م، ص 118.
6) النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج1، ص112.
7) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، ج2، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1359، ص337.
8) حضارة الموحّدين، محمد المنّوني، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط1، 1989م، ص 94.
9) النّبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنّون، ج1، ص 126.

10) حضارة الموحّدين، محمد المنّوني، ص 14/ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، شرح صلاح الدّين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006م، ص (256، 257).
11) التّربية والتّعليم في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، صفيّة ديب، ص (42، 43).
12) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، ص255.
13) باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، شاوش محمد بن رمضان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1999م، ص 27.
14) أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج1، دار الأمل للدّراسات والنّشر الجزائر، د ط، 2011م، ص (132، 133) / العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، أبي زيد عبد الرّحمن بن خلدون، ج6، دار الفكر للنّشر، بيروت، دط،2000، ص309.
15) أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج1، ص136 / العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، أبي زيد عبد الرّحمن بن خلدون، ج7، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، دط، 1967، ص (151، 152).
16) أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج1، ص (139، 140) / المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، المكتبة التّجاريّة، القامرة، ط1، 1949، ص (237، 238).
17) أدباء وشعراء من تلمسان، بوزياني الدّراجي، ج1، ص147
18) حضارة الموحّدين، محمد المنّوني، ص31 / المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي بن علي التّميمي، مطبعة السّعادة، مصر، دط، 1324 هـ، ص182.
19) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبي عبد الله محمد بن محمد الملقّب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التّلمساني، المطبعة الثّعالبيّة، الجزائر، دط، 1908، ص69.
20) عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني، أحمد بن أحمد بن عبد الله، تحقيق عادل نويهض، ص270.
21) من أعلام تلمسان، محمد مرتاض، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، دط،2004م، ص(40،41) / فوات الوفيّات للكتبي، تحقيق محيي الدّين عبد الحميد، ج2، مكتبة النّهضة، القامرة، دط، دت، ص455.
22) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، محمد المنّوني، ص128.